

العالم الروائي عند الكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي

د . عمر عبد الفتاح(*)

1. مقدمة.

يعد تشينوا أتشيبي Chinua Achebe أحد أهم وأشهر الروائيين الأفارقة الذين كتبوا باللغة الإنجليزية، والذين أعطوا للرواية الأفريقية مكانة واحتراماً على مستوى العالم. فقد نجح أتشيبي من خلال أعماله الأدبية في نقل التجربة الأفريقية للعالم بعيون أفريقية واعية ومدرّكة غيرت كثيراً من المفاهيم والصور الذهنية المغلوطة التي طالما ترسخت في وعي ومدرّكات الآخرين؛ فنالت أعماله احترام الأفارقة وإعجاب الغربيين.

فأعمال أتشيبي كما يذكر وول شوينكا، الأديب النيجيري الشهير والحاصل على جائزة نوبل في الآداب عام 1986: «تتكلم من داخل الشخصية الأفريقية، بدلاً من أن تصور الإفريقي على أنه شيء غريب وعجيب كما يراه الأبيض»⁽¹⁾. وتقول عنه نادين جورديمر، أديبة جنوب أفريقيا والحاصلة على جائزة نوبل في الآداب عام 1991: «له موهبة متألفة وعظيمة ومفعمة بالحماس والثناء». ويصفه الناقد الأدبي بروس كين في مقدمته للأدب النيجيري، بأنه أول كاتب نيجيري ينجح في ترجمة ونقل الرواية من نمط الفن الأوروبي إلى الأدب الإفريقي⁽²⁾. وتعترف الكاتبة توني موريسون الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب بأن أتشيبي هو الذي أضرم علاقة الحب بينها وبين الأدب الإفريقي تاركاً أعظم الأثر على بداياتها ككاتبة⁽³⁾. ويرى معظم النقاد أن إنجاز أتشيبي الروائي لا يحده بهويته

(*) أستاذ مشارك بقسم اللغات الأفريقية بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.

الإفريقية، ولذلك يتم النظر إليه كواحد من أفضل الروائيين الذين يكتبون باللغة الإنجليزية الآن.

وتعود شهرة أتشيبي في الأساس لكونه روائياً قديراً متميزاً، ورغم أن أعماله الروائية قليلة العدد نسبياً، خمس روايات، إلا أنها مثلت نقلة نوعية في تاريخ الرواية الإفريقية عامة والرواية الإفريقية المكتوبة بالإنجليزية بشكل خاص، سواء على مستوى الشكل أو المضمون مما حقق له شهرة واسعة.

وبالإضافة إلى أعمال أتشيبي الروائية فقد كتب أيضاً أعمالاً شعرية وأخرى نقدية، كما كتب بعض القصص القصيرة وكتب الأطفال بالإضافة إلى العديد من المقالات، كما قام بتحرير عدد من الكتب الأدبية.

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة في أعمال أتشيبي الروائية التي تشكل عالمه الروائي الخصب؛ فتبدأ بالتعريف بالكاتب فتتناول حياته وأعماله، وتثني بالحديث عن عالم أتشيبي الروائي من خلال إلقاء الضوء على موضوعات رواياته وحبكتها وشخصياتها الرئيسة وأهم القضايا الاجتماعية والسياسية التي تعالجها هذه الروايات، وتختتم الدراسة ببعض الملاحظات الختامية حول أتشيبي وأعماله الروائية.

2. تشينوا أتشيبي: حياته وأعماله.

ولد تشينوا أتشيبي في عام 1930 بقرية أوجيدي Ogidi في شرقي نيجيريا⁽⁴⁾، لوالدين مسيحيين حيث كان أبوه يعمل قسيساً وكان يُدرّس في مدارس الإرساليات التبشيرية، مما مكن أتشيبي من الالتحاق بمدارس النخبة، فالتحق بالمدرسة الحكومية بأومواها Umuahia في الفترة من عام 1944 - 1947. واستكمل دراسته في جامعة إيبادن وذلك في الفترة من 1948 - 1953. وفي عام 1953 انتقل أتشيبي إلى لندن حيث حصل على ماجستير الآداب من جامعة

لندن. وبعدها بعام التحق للعمل بالإذاعة النيجيرية في لاجوس. وفي عام 1956 رحل إلى لندن مرة أخرى ليستكمل دراسته للصحافة والإعلام في هيئة الإذاعة البريطانية BBC بلندن⁽⁵⁾. وفي العاشر من سبتمبر عام 1961 تزوج من كريستي تشينوى أوكولي Christie Chinwe Okoli وأنجب منها «أربعة أبناء هم تشينلو Chinelo، وإكيتشوكو Ikechukwu، وتشيدي Chidi، ونواندو Nwando»⁽⁶⁾.

ويتمي أتشيبي لقبيلة الإيو إحدى الجماعات العرقية الكبرى في نيجيريا، وتجدر الإشارة إلى أن أتشيبي قام بتغيير اسمه من ألبرت تشينوالوموجو أتشيبي Albert Chinualumogu Achebe إلى تشينوا أتشيبي ليعكس بذلك ارتباطه بأصوله الأفريقية وبهويته المنتسبة للإيو، مبتعداً ومتنصلاً من الاسم الغربي "ألبرت"⁽⁷⁾.

بدأ أتشيبي حياته الأدبية في عام 1958 عندما نشر روايته الأولى «الأشياء تتداعى» "Things Fall Apart"⁽⁸⁾، والتي لاقت رواجاً وانتشاراً كبيراً وبيع منها أكثر من ثمانية ملايين نسخة وترجمت لأكثر من خمس وأربعين لغة⁽⁹⁾. كما نالت الرواية تقديراً أدبياً رفيعاً من النقاد، الأمر الذي وضع أتشيبي في مصاف أدباء أفريقيا الكبار في أول ظهور له على الساحة الأدبية.

وفي عام 1960 أصدر أتشيبي روايته الثانية «مضى عهد الراحة» "No Longer at Ease"⁽¹⁰⁾ والتي تعتبر تنمة لرواية «الأشياء تتداعى». وبعد أربع سنوات وفي عام 1964 صدرت روايته الثالثة «سهم الله» "Arrow of God"⁽¹¹⁾. وفي عام 1966 نشر أتشيبي روايته الرابعة «رجل الشعب» "Man of the People".

وفي ذات العام 1966 اندلعت الحرب الأهلية في نيجيريا والتي عُرفت باسم "حرب بيفرا"، حيث نشب النزاع بين جماعة الإيو في شرق نيجيريا من جهة وبين الجماعات العرقية الأخرى المكونة للاتحاد الفيدرالي في نيجيريا. وذلك على أثر إعلان الإيو قيام دولتهم المستقلة في إقليم بيفرا، الأمر الذي

قوبل بالرفض من قبل الجماعات العرقية الأخرى وخاصة في ظل الصراع حول حقول البترول الغنية الموجودة في بيافرا. وقد انضم أتشيبي إلى بني عشيرته في هذا الصراع حيث ترك العمل بالإذاعة وعاد إلى شرق نيجيريا حيث تولى شئون الإعلام في دولة بيافرا الناشئة، كما عمل كدبلوماسي للدولة الوليدة. ولم ينته هذا الصراع إلا في عام 1970 حيث انتصرت القوات الفيدرالية على القوات الانفصالية في حرب راح ضحيتها أكثر من مليوني شخص.

وبعد توقف الحرب سافر أتشيبي إلى أمريكا وحاضر في بعض جامعاتها وعند عودته عُين باحثاً بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة نيجيريا بنوزاكا، وتولى تحرير مجلة الجامعة، ومجلة ثقافية أخرى اسمها Okiki، كما أصبح مستشاراً لسلسلة الكتاب الأفارقة التي أنشأتها دار هاينمان البريطانية. وقد عمل في الفترة من 1972-1976 أستاذاً زائراً في بعض الجامعات الأمريكية، وفي الثمانينيات استمر في تدريس الأدب في نوزاكا⁽¹²⁾.

وقد توقف إنتاج أتشيبي الروائي بعد عمله الأخير «رجل الشعب» فترة تزيد عن العشرين عاماً، ولكنه في تلك الأثناء كتب أعمالاً شعرية وأخرى نقدية وبعض القصص القصيرة بالإضافة إلى العديد من المقالات وكتب الأطفال، كما قام بتحرير بعض الكتب الأدبية. فقد أصدر أتشيبي ديوانين شعريين: الأول بعنوان «حذار يا أخا الروح» "Beware, Soul-Brother" عام (1971) والذي تعكس قصائده أجواء الحرب الأهلية في نيجيريا وما سببته من صدمه، والثاني بعنوان «عيد الميلاد في بيافرا» "Christmas at Biafra" عام (1973). وفي عام (1975) كتب مقالة أدبية عن حرب بيافرا تحت عنوان «مازلنا في صبيحة يوم الخلق» "Morning Yet on Creation Day". كما كتب عدداً من القصص القصيرة منها «البيضة القربان» "The Sacrificial Egg" عام (1962)، و «كيف حصل النمر على مخالبه» "How the Leopard Got His Claws" عام

(1972)، و«فتيات في حرب» "Girls at War" (1973)، و«الناي» "The Flute" عام (1975)، و«الطبل» "The Drum" عام (1978)، ومجموعة قصص قصيرة بعنوان «قصص أفريقية قصيرة» "African Short Stories" عام (1984). كما كتب رواية للأطفال بعنوان «شيكي والنهر» "Chike and the River" عام (1966). كذلك قام أتشيبي بتحرير كتابي «لا تدعه يموت» "Don't Let Him Die" عام (1978)، وهو عبارة عن مختارات شعرية في ذكرى الأديب النيجيري كريستوفر أوكيجبو Christofer Okigbo، وكتاب «أكا ويتا: مختارات شعرية من شعر الإيبو» "Aka Weta: An Anthology of Igbo Poetry" عام (1982). وفي عام (1984) كتب مقال «مشكلة نيجيريا» "The Trouble With Nigeria" الذي انتقد فيه المشهد السياسي في نيجيريا. وله في النقد الأدبي كتاب بعنوان «آمال ومعوقات» "Hopes and Impediments" صدر عام (1988). وفي ذات العام (1988) أصدر أتشيبي روايته الأخيرة «كثبان النمل في السافانا» "Anthills of the Savannah" بعد انقطاع عن كتابة الرواية زاد عن عشرين عاماً. أما آخر أعماله فكان كتابه «الوطن والمنفى» "Home and Exile" الذي صدر عام (2000) والذي يحلم فيه بحضارة عالمية، تشارك في صنعها جميع شعوب العالم، ويرى أن الحضارة الحالية إما أمريكية أو أوربية. ويقول إنه من المحزن أن هناك تراث يخص أكثر من حضارة وأكثر من شعب، يكاد يمحي ولا يجد من يُذكر به⁽¹³⁾. ويمكن إجمال أهم أعمال أتشيبي فيما يلي:

1958	رواية «الأشياء تتداعى» "Things Fall Apart"
1960	رواية «مضى عهد الراحة» "No Longer at Ease"
1962	«البيضة القربان» "The Sacrificial Egg" (قصة قصيرة)
1964	رواية «سهم الله» "Arrow of God"
1966	رواية «رجل الشعب» "Man of the People"

- 1966 «شيكى والنهر» "Chike and the River" (رواية للأطفال)
- 1971 ديوان «حذار يا أخا الروح» "Beware, Soul-Brother"
- 1972 «كيف حصل النمر على مخالبه» "How the Leopard Got His Claws" (قصة قصيرة)
- 1973 ديوان «عيد الميلاد في بيافرا» "Christmas at Biafra"
- 1973 «فتيات في حرب» "Girls at War" (مجموعة قصص قصيرة)
- 1975 مقالة «مازلنا في صبيحة يوم الخلق» "Morning Yet on Creation Day"
- 1975 «الناي» "The Flute" (قصة قصيرة)
- 1978 «الطبل» "The Drum" (قصة قصيرة)
- كتاب "لا تدعه يموت: مختارات شعرية في ذكرى كريستوفر أوكيجبو"
- 1978 "Don't Let Him Die: An Anthology of Memorial Poems for Christofer Okigbo" (تحرير)
- 1980 كتاب «الأدب والمجتمع» "Literature and Society"
- 1982 كتاب «أكاويتا: مختارات شعرية من شعر الإيبو» "Aka Weta: An Anthology of Igbo Poetry" (تحرير)
- 1984 «قصص أفريقية قصيرة» "African Short Stories" (مجموعة قصصية)
- 1986 كتاب «عالم أوجباني» "The world of ogbanje"
- 1984 «مشكلة نيجيريا» "The Trouble With Nigeria" (مقال)
- 1988 روايه «كثبان النمل في السافانا» "Anthills of the Savannah"
- 1988 كتاب «آمال ومعوقات» "Hopes and Impediments"
- 1988 كتاب «الجامعة وعامل القيادة في السياسة النيجيرية» "The university and the leadership factor in Nigerian politics"
- 1989 كتاب «موضوعات نيجيرية» "Nigerian topics"
- 1992 كتاب "القصة القصيرة الأفريقية المعاصرة"
- "Contemporary african short stories" (تحرير)
- 2000 كتاب «الوطن والمنفى» "Home and Exile"

وعمل أتشيبي في الفترة الأخيرة من حياته محاضراً في جامعة ياردبالولايات المتحدة الأمريكية حيث استقر هناك بعد إصابته بشلل كلي في النصف السفلي من جسده أثر تعرضه لحادث سير في عام 1990⁽¹⁴⁾. وفي عام 2009 انتقل للتدريس في جامعة براون - بوسطن وظل يعمل هناك حتى يوم 21 مارس من عام 2013، حيث غادر أتشيبي عالمنا وتوفي بمدينة بوسطن الأمريكية⁽¹⁵⁾، وتم نقل جثمانه حيث دفن في مسقط رأسه ببلدة أوجيدي بولاية أنامبرا بنيجيريا.

• أتشيبي والتكريم الأدبي.

حصل أتشيبي على العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية منها الميدالية الوطنية النيجيرية للأدب بمناسبة استقلال نيجيريا في ستينيات القرن الماضي، وجائزة الكومنولث الشعرية عن ديوانه «حذار يا أخا الروح» (1971)⁽¹⁶⁾. كما نال الدكتوراه الفخرية من جامعة دارتموث الأمريكية، وشرح لجائزة نوبل للآداب⁽¹⁷⁾، كما رشح للحصول على جائزة البوكر البريطانية الشهيرة عن روايته الأخيرة «كثبان النمل في السافانا»⁽¹⁸⁾. وفي عام 1999 عينته الأمم المتحدة سفيراً لها للنوايا الحسنة⁽¹⁹⁾.

وقد تم اختيار روايته «الأشياء تتداعى» من ضمن 12 كتاباً اعتبرت من أفضل كتب القرن في أفريقيا، وذلك من قبل لجنة تحكيم من الأكاديميين والكتاب الأفارقة كان قد تم تشكيلها بمبادرة من الكاتب والأكاديمي الكيني علي مزروعلي، حيث راجع المحكمون أكثر من 1500 كتاب كتبت بلغات أفريقية عديدة على مدار ثلاثة أعوام⁽²⁰⁾.

وفي عام 2002 فاز أتشيبي بجائزة رفيعة للسلام منحها له رابطة ناشري وبائعي الكتب الألمان تقديراً لدوره كروائي وكاتب أخلاقي أفريقي رائد. وقالت الرابطة في بيان لها إنها: «تكرم تشينوا أتشيبي باعتباره أحد أقوى الأصوات وأبرعها في أفريقيا في أدب القرن العشرين، ولأنه معلم ومدافع عن الأخلاق

لا يكل ولا يمل، ولأنه في المقام الأول روائي عظيم»⁽²¹⁾. وفي عام 2004 فاز أتشيبي بجائزة نيو ستات الدولية Neustadt International Prize⁽²²⁾.

ولم يقتصر التقدير الذي ناله أتشيبي على الجوائز التي حصل عليها، أو على التقدير والثناء الذي ناله من الأدباء والنقاد فقط؛ بل أنه نال تقديرًا من العديد من الشخصيات السياسية الشهيرة، ففي عيد ميلاده السبعين الذي أقيم في الولايات المتحدة، لم يغفل العالم عن تأكيد الاعتراف بمنزلة هذا الروائي المتميز والكاتب القصصي الفائق. فقد بعث نيلسون مانديلا المناضل والرئيس السابق لجنوب إفريقيا رسالة يتذكر فيها أعمال أتشيبي التي قرأها وهو ما زال في السجن أيام نظام التمييز العنصري، مبيناً مدى إعجابه بالكاتب الشجاع الذي لا يعرف الجبن، حسب تعبيره»⁽²³⁾، كما أشاد مانديلا بأتشيبي قائلاً: «إنه الكاتب الذي تهاوت برفقته جدران السجن»⁽²⁴⁾. كما أن كوفي أنان، السكرتير العام للأمم المتحدة، أبدى إعجاباً مماثلاً وهو يتحدث عن «مواقفه الوطنية الشجاعة ضد الأمراض التي تفتك بأفريقيا...». أما جيمي كارتر، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية، فقد وصف أتشيبي في تلك المناسبة بأنه «نموذجه في البطولة»⁽²⁵⁾.

ورغم كل هذا التقدير إلا أن أتشيبي لم يكن يكتب ليحصل الجوائز أو لينل ثناءً، فأتشيبي أديب ملتزم له قضيته التي يكتب منافحاً ومدافعاً عنها، فهو مهتم بقضايا وطنه حريص على التعبير عنها على مدار تاريخه بغض النظر عن أية جوائز أو تقدير. ويكفي أن نشير إلى أنه في بدايات عام 2006 أعلنت الحكومة النيجيرية تكريم أتشيبي ومنحة جائزة رفيعة وهي جائزة الجمهورية الاتحادية CFR، إلا أنه رفض الجائزة اعتراضاً على أوضاع نيجيريا السياسية والاجتماعية، ووجه رسالة إلى الرئيس النيجيري أوباسانجو جاء فيها: «إن الأوضاع التي تعيشها نيجيريا تحت نظام حكمك أخطر بكثير من أن يُسكت عنها. وإنني أسجل هنا إحباطي واعتراضي على ذلك برفضي أعلى مرتبة شرف يمكن أن أحصل عليها»⁽²⁶⁾.

3. عالم أنثيبي الروائي.

يمتد عالم أنثيبي الروائي عبر خمسة أعمال روائية كُتبت على مدار ثلاثين عاماً، ورغم قلة عدد رواياته النسبي إلا أنها جعلت منه أحد أهم الروائيين الأفارقة. فقد مثلت هذه الأعمال نقلة نوعية هامة في تاريخ الرواية الأفريقية، واستطاعت أن تتوغل بعمق في المجتمع الأفريقي وأن تتابع حركته وترصد تغيره على مدار فترة طويلة من الزمان تمتد لحوالي قرنين من الزمان، منذ وصول البعثات التبشيرية التي مثلت الإرهاصات الأولى للاستعمار وحتى تجذر الاستعمار في أوصال القارة وصدامه بالمجتمع الأفريقي، ورافقت رحيله وقيام الدولة الأفريقية الحديثة وما لازمها من مشكلات سياسية واجتماعية. وتبدو أعمال أنثيبي كما لو أنها سلسلة ممتدة عبر فصول متتالية تؤرخ لكل مرحلة من هذه المراحل مبيّنة مواطن القبح والجمال فيها.

وأعمال أنثيبي الروائية تضرب بقوة وبمرارة على أبواب الحرية المأمولة لشعوب القارة في مرحلة الاستعمار، وتناضل لمعالجة مساوئ المجتمع المحلي فيما بعد الاستقلال بكل ما فيه من تخلف وجهل وفساد وظلم اجتماعي وتفكك أخلاقي وقيمي واحتقان سياسي وحروب أهلية مازالت تعصف بأمان القارة. ويطالعنا هذا الطرح في أعمال أنثيبي من أولها «الأشياء تتداعى» 1958، ومروراً بـ «مضى عهد الراحة» 1960، و«سهم الله» 1964، و«رجل الشعب» 1966، وحتى آخرها «كثبان النمل في السافانا» 1988، وكلها تسعى لاستعادة ماضي إفريقيا المجيد، وتحلم بغد آت قريب تتحقق فيه قيم الخير، وينتفي فيه الظلم والبؤس والعوز.

وفيما يلي نلقي الضوء على بعض ملامح هذا العالم الروائي من خلال استعراض أعمال أنثيبي الروائية.

• رواية «الأشياء تتداعى».

بدأ أنشيبى حياته الأدبية في عام 1958، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، عندما نشر روايته الأولى «الأشياء تتداعى» "Things Fall Apart" والتي صدرت عن دار نشر هايمنان. والتي لاقت رواجاً وانتشاراً كبيراً وبيع منها أكثر من ثمانية ملايين نسخة وترجمت لغالبية لغات العالم، كما حظيت بتقدير أدبي رفيع من النقاد، الأمر الذي وضع أنشيبى في مصاف أدباء أفريقيا الكبار في أول ظهور له على الساحة الأدبية.

وقد اقتبس أنشيبى عنوان هذه الرواية من أحد المقاطع الشعرية من قصيدة «الحضور الثاني» "The second coming" للشاعر الأيرلندي «وليم ياتس» William Yeats، والذي يقول فيه:

الأشياء تتداعى

المركز لم يعد في استطاعته التماسك

والفوضى الشاملة تعم العالم⁽²⁷⁾

والموضوع الأساسي الذي تركز عليه الرواية هو أثر الاستعمار الأوروبي والثقافة الغربية على طريقة الحياة في أفريقيا عامة ومجتمع الإيبو في نيجيريا بوجه خاص. وتدور أحداث هذه الرواية في قرية "أوموفيا" إحدى قرى مجتمع الإيبو بنيجيريا في أواخر القرن التاسع عشر. وذلك من خلال قصة سقوط أوكونكو Okonkwo الزعيم التقليدي للقرية، ذلك السقوط الذي يرتبط بظهور الرجل الأبيض على الأرض الأفريقية. فأوكونكو، بطل الرواية، القوي الشجاع الذي يستطيع أن يبني سمعته بنفسه ويحظى باحترام كبار رجال القبيلة وخشية أهل القرية. تدفعه رغبة شديدة تكاد تكون غايته الوحيدة في الحياة وهي الظفر بالسلطة والسلطة والجاه في قريته، وأن يكون أحد كبار رجال القبيلة.

وتدور الأحداث حول أوكونكو القوي، ضخمة البنية طويل القامة ذو الحاجبين الكثيفين والأنف العريض، ذلك الشكل الذي يضيف عليه مظهر الحدة والصرامة. وقد اشتهر أوكونكو في القرى التسعة المجاورة لقريته وما بعدها منذ أن كان فتى في الثامنة عشرة من عمره حينما رفع اسم قريته عالياً من خلال انتصاره على بطل المصارعة الشهير، الملقب بالقط لأن ظهره لم يلمس الأرض أبداً. وقد أقيم لنصره احتفالات دامت سبع ليالٍ لكونه أول من تغلب على القط منذ سبع سنوات، وافتخر شيوخ القرية به وبانتصاراته وشبهوه بالسمة سريعة الانزلاق.

كما أن أوكونكو كان مزارعاً ناجحاً وله ثلاث زوجات، وأباً لسبعة أطفال وكان يحكم بيته بالشدّة. وكانت زوجاته يخفن منه وخاصة أصغرهن، وهن يعشن برعب من مزاجه العصبي، وكذلك أطفاله. حيث كان حاد الطباع وغير قادر على التحكم بغضبه، مما جعل الجميع يهابه.

ورغم ذلك فإن أوكونكو لم يكن قاسياً على الدوام فهو يحب ابنته الكبرى بشدة، وهو معجب بالفتى إيكيمفونا، الذي أرسل إليه من قرية أخرى كتعويض عن الموت الخطأ لفتاة شابة من قريته. كما بدأ يشعر بالفخر بابنه الأكبر، والذي غالباً ما رأى فيه والده.

وربما لم يكن أوكونكو في أعماق قلبه رجلاً قاسياً غير أن حياته المحكومة بالخوف، الخوف من الفشل والضعف، كان أعمق بكثير وأقرب إليه من الخوف المألوف من الشر أو الإله والسحر أو حتى الخوف من الغابة وقوى الطبيعة، كان خوفه داخلياً وعميقاً، الخوف من أن يكون مشابهاً لأباه ضعيف الشخصية المتخاذل. فأوكونكو رجل عصامي عمل وجاهد طيلة حياته ليكون نقيض والده الذي اتسم بضعف الشخصية والكسل وعدم القدرة على التفكير بالغد، والذي استدان من كافة سكان القرية من دون أن يرد لأحد دينه، ولم يكن يشغل تفكيره سوى متعه في الحياة. واستطاع أوكونكو أن يحقق النجاح على الصعيد العملي

وبناء اسمه رغم صغره في السن حتى بات يتمتع بسمعة طيبة. وقد اكتسب تقدير واحترام كبار القبيلة وذلك بفضل إنجازاته⁽²⁸⁾، ولذا فقد رغب بشده في أن يكون أحد كبار رجال القبيلة.

وتدور الأحداث في هذا الإطار إلى أن يقتل أوكونكو أحد أفراد قريته عن طريق الخطأ، وهو ما يستوجب عقوبة النفي في قانون الإيبو. وأثناء فترة نفي أوكونكو، التي تستمر لسبع سنوات، تصل طلائع البعثات التبشيرية البريطانية إلى القرية. وبعد عودته من المنفى يرى أوكونكو أن قريته قد تبدلت تماماً ولم تعد كما كانت، فالمبشرون أقاموا الكنائس وعسكروا داخل القرية، وتدخل المستعمرون في كل شيء وفرضوا وجودهم.

ويرى أوكونكو أن المستعمرين البريطانيين يمثلون خطراً كبيراً على جماعته ويعلن عن رغبته في قتالهم، ولكنه يجد نفسه وحيداً فلا أحد في القرية يدعمه ويقف إلى جانبه حتى صديقه أوبيريك يقول له: « لقد استطاع الرجل الأبيض كسب ود أهل القرية ولم تعد هناك رغبة في قتالهم ». إلا أن أوكونكو يرفض التسليم بهذا الواقع الجديد ويقوم بقتل المبعوث الذي أرسلته الإدارة الاستعمارية، فيحكم عليه بالإعدام. ولكن أوكونكو رغم اعترافه بجرمه يرفض الخضوع لقانون المستعمر ويفضل الانتحار⁽²⁹⁾، بعد أن يجد أن الأمور قد تغيرت ولم تعد كما كانت، وأنه ليس باستطاعته أن يتماشى مع هذا العالم فيسقط ويتداعى بما يمثله من قيم فكل الأشياء من حوله تنهار وتتداعى.

وتعد رواية «الأشياء تتداعى» واحدة من أهم وأشهر الروايات الإفريقية والعالمية، وإحدى المائة عمل الأكثر تميزاً في الأدب الإنساني. كما تعتبر أول رواية عالجت موضوع الاستعمار الأوربي من وجهة نظر إفريقية. وقد رصدت هذه الرواية مراحل القلق والعنف التي رافقت تحولات وتفكك المجتمع الإفريقي، مع بداية الاستعمار وحملاته التبشيرية. وأوضحت مأساة السكان

الأصليين (شعب الإيبو) الذين يصطدمون بسلطة القوى الخارجية التي أتت لتخلخل البنى القائمة على الأعراف والتقاليد المتوارثة منذ آلاف السنين. فمع اصطدام شعب الإيبو بالقيم التي يحملها الاستعمار والمستعمرون معهم تهتز الأرض تحت أقدامهم وتتداعى الأشياء من حولهم شيئاً فشيئاً إلى أن ينهار كل شيء، ويبدو وكأن كل شيء ينبغي أن يبدأ من جديد.

وتعتبر «الأشياء تتداعى» قصة ملحمة لبطل يحاول مقاومة التغيير الناتج عن المواجهة بين المجتمع التقليدي والقوى الأجنبية الوافدة، ذلك التغيير الذي اجتاح كافة الأنظمة التقليدية سواء على صعيد القيم أو المعتقد الديني أو نمط الحكم وإدارة شئون العشيرة أو غيرها من الأسس التقليدية. والصراع حول هذه الأنظمة يتم على مستويين أحدهما الصراع مع المحتل، والآخر مع أفراد العشيرة الذين ساروا في ركب الآخر واعتنقوا ديانته الجديدة وأذعنوا له. ويحاول أكونكو التصدي لكل هذا إلا أنه يكتشف أنه يصارع بمفرده فقد انصرفت العشيرة عنه بعد أن تغيرت وتغير عالمها، فعندما يقتل أكونكو مبعوث الإدارة الاستعمارية يجد أن عشيرته لا تؤازره، فقد سمحت لبقية الجنود بالفرار دون أن تتعرض لهم، كم أنهم تساءلوا عن سبب إقدامه على ذلك الفعل. ويصور أنشيبى تلك اللحظة فيقول: «في ومضة سحب أكونكو خنجره وانحنى الرجل ليتفادى الضربة لكن دون جدوى هوى خنجر أكونكو مرتين، ورقد رأس الرجل إلى جانب جسمه الذي يغطيه الزي الرسمي ... دبّت في الخلفية المنتظرة حياة متلاطمة، وانفض الاجتماع ووقف أكونكو ينظر إلى الرجل الميت. علم أن أوموفيا لن تحارب. علم ذلك لأنهم تركوا الرسل الآخرين يفلتون وانطلقوا في ضجيج وجلبة بدلاً من أن ينطلقوا للعمل، لمح ذعراً في الجلبة، سمع أصواتاً تسأل «لماذا فعل ذلك؟»⁽³⁰⁾. وهنا يقرر أكونكو البطل الملحامي مواصلة معركته بمفرده رغم الحكم عليه بالقتل من قبل المستعمرين ولكنه يرفض تنفيذ هذا الحكم، ويرتدي

زي الحرب ويقرر في كبرياء أن ينهي معركته بنفسه ويتحرر، مفضلاً هذه الميته عن الموت على يد المستعمر. وليؤكد على ولائه للقديم وأنه لم يعد باستطاعته العيش وسط هذا العالم الغريب الذي قوض أسس عالمه المثالي.

واستطاع أتشيبي أن يستدعي في هذه الرواية كثيراً من ملامح الحياة الاجتماعية التقليدية لشعب الإيبو التي كانت سائدة في تلك الفترة، فصور بدقة العديد من المشاهد الاجتماعية لهذه الحياة ووثقها حتى يكاد القارئ يشعر بأنها ماثلة أمام عينيه. ومن بين هذه المشاهد نطالع تصويره لوضع وأهمية الزوجة الأولى في مجتمع الإيبو العشائري من خلال شخصية أناسي زوجة أوكونكو الأولى، كما يبين لنا أهمية الوسطاء الروحيين ودورهم في المجتمع، وكيفية تطبيق العدالة، والأوضاع الدينية، ومراسم العديد من الاحتفالات، والطقوس الجنائزية⁽³¹⁾. وقد بهر هذا التصوير الدقيق والمحكم قراء أتشيبي وفتح عيونهم على عالم لم يروه من قبل، أو بالأحرى لم يريدوا أن يروه، لأنهم استقوا كل معلوماتهم عن أفريقيا من خلال عيون أوربية غريبة، أو من خلال عيون أفريقية ترتدي النظارة الغربية. فلم يروا غير الهمجية والوثنية والتخلف، وقد عبر أتشيبي عن ذلك عندما تحدث عن أسباب كتابة هذه الرواية بالقول: «إن ذلك الافتنان بتتف المعلومات التي استطعت أن أجمعها عن أسلافي هي ما تطور إلي رغبة في كتابة هذه الرواية، فالتربية الاستعمارية كانت تقول إن مجتمعي ليس فيه ما يستحق الذكر، ورحت أشك في ذلك لأكتشف أن ثمة أشياء جميلة حتى لدى من دعاه المستعمرون بالوثني والهمجي»⁽³²⁾.

وتعد هذه الرواية الآن من كلاسيكيات الأدب، بعد أن ترجمت إلى أكثر من خمسين لغة أجنبية، كما أنها شكلت منعطفا هاما في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين بالنسبة للكتاب الأفارقة⁽³³⁾. فقد دشت هذه الرواية بداية اتجاه أدبي جديد عرف بأدب ما بعد الكولونيالية post-colonial أو أدب ما

بعد الاستعمار، حيث تعتبر هذه الرواية هي الرواية الأولى في أدب فترة ما بعد الاستعمار تلتها روايات أخرى وأشعار وأعمال أدبية من مختلف بلدان العالم الثالث المستعمر، أطلق عليها في جميع جامعات العالم «أدب ما بعد الكولونيالية». وأخذ النقاد يتحدثون عن أن المستعمرات بدأت تكتب إلى المركز وتغير وجه الأدب وتعبّر عن وجهات نظر السكان الأصليين وقيمهم ودياناتهم وحضاراتهم وتفاصيل حياتهم وهمومهم.

ويمكن النظر لهذه الرواية بوصفها نموذجاً مثالياً لرواية ما بعد الاستعمار؛ فهي تجسد بامتياز إشكاليات هذا الخطاب، فهي توضح الكثير من قيم وعادات وتفاصيل حياة وهموم شعب الإيبو الذي دهمه المستعمر وغير من شكل حياته بعد أن هدم دعائم مجتمعه التقليدي البسيط وأعاد رسم عالم جديد مغاير.

• رواية «مضى عهد الراحة»⁽³⁴⁾.

وقد عالج أوشيبي موضوع الصدام بين القيم التقليدية للمجتمعات الأفريقية وقيم الاستعمار الوافد أيضاً في روايته التاليتين: رواية «مضى عهد الراحة» "No Longer at Ease" التي صدرت عام 1960، ورواية «سهم الله» "Arrow of God" التي صدرت عام 1964. ففي رواية «مضى عهد الراحة» والتي تعتبر تتمة لرواية «الأشياء تتداعى»، والتي تدور على مشارف استقلال نيجيريا، نجد أن الشخصية الرئيسية فيها هو أوبي أوكونكو Obi Okonkwo حفيد أوكونكو، بطل روايته الأولى، وهو شاب مثقف تعلم تعليماً غربياً، ونظراً لتفوقه أقرضه حزب الاتحاد القومي بقرئته بعض المال لإكمال دراسته بإنجلترا. وبعد أن ينهي دراسته يتوق للعودة إلى وطنه وهو ممتلئ بالأفكار المثالية، فهو يحلم برؤية بلده كأمة جديدة متقدمة وخالية من الفساد. وعلى ظهر الباخرة التي أقلته عائداً لبلده يتعرف أوبي بكларاً مواطنته الشابة التي درست التمريض في إنجلترا

أيضاً، وتتطور هذه المعرفة إلى حب غامر. وفور عودته يحصل أوبي على وظيفة مغرية في لاجوس، ويبيدي أوبي مثالية واستقامة في وظيفته، ولكنه سرعان ما يسقط فريسة للديون. فقد حل موعد سداد قرض الاتحاد القومي، وتكاثر ضرائبه ومشترياته، وتزايدت نفقات حبه. وتصير علاقته بكالارا عبئاً نفسياً ومادياً كبيراً، وخاصة في ظل رفض أباه والاتحاد القومي لهذه العلاقة، وتهديد أمه له بالانتحار إذا تزوج بكالارا، فكالارا في عرف قومه من المنبوذين لأنهل تنحدر من سلالة العبيد. وتتراجع كل هذه الضغوط عليه، وترغمه حاجته للمال على التهاون في مثاليته وقبول الرشوة، حتى يفسد وينتهي إلى السجن⁽³⁵⁾.

والفكرة التي يطرحها أتشيبى هنا هي حالة المجتمع الأفريقي بعد الاستعمار، وظهور شريحة من المجتمع التي تلقت تعليماً غربياً واندمجت وسط تياره، وهي في ذات الوقت تخضع لسلطة القبيلة ولا تستطيع الفكك منها. فالاتحاد القومي بقرية «أوموفيا»، الذي أمد أوبي بالقرض ليكمل تعليمه، يتدخل في حياته الشخصية بوصفه ممثلاً لسلطة العشيرة ويحدد له ما يجب فعله وما لا يجب، فهو لا يقبل بعلاقته بكالارا لأنها تنحدر من سلالة العبيد «الأوزو» ولا يحق له طبقاً لعادات عشيرته أن تربطه بها أية علاقة ناهيك عن الزواج بها. ويحاول أوبي الدفاع عن حياته الخاصة، فيصطدم بالاتحاد ويدخل في نزاع معه. ويحاول الوصول إلى معادلة تكفل حريته الخاصة الناتجة عن اندماجه وسط مجتمعه المتغرب الجديد وفي نفس الوقت تضمن ولائه والتزامه بعادات العشيرة، إلا أنه يفشل في الوصول إلى مبتغاه، وعندئذ يسقط أوبي ضحية للشد والجذب بين هذا التيار وذاك.

والمفارقة التي تطرحها الرواية تتمثل في نهاية الحفيد أوبي والجد أوكونكو؛ فإذا كانت مأساة أوكونكو الجد هي عدم قدرته على التكيف مع الواقع، فإن مأساة أوبي الحفيد هي التكيف السريع والمميت مع هذا الواقع. مع ملاحظة الفارق

بين الشخصيتين فعلى العكس من أكونكو الذي كان ولاؤه موجهاً في اتجاه واحد، عانى أوبي من التفسخ بين عالمين مختلفين⁽³⁶⁾.

• رواية «سهم الله».

صدرت رواية «سهم الله» "Arrow of God"، وهي الرواية الثالثة لأتشيبي، في عام 1964. وفي هذه الرواية ينتقل أتشيبي ليرصد مرحلة أخرى من مراحل تطور المجتمع الأفريقي؛ وهي المرحلة التي استطاع الاستعمار فيها من توطيد مكانته وترسيخ أقدامه في القارة، وهذه المرحلة تلي المرحلة التي عالجتها رواية «الأشياء تتداعى» وتسبق المرحلة التي تعالجها رواية «مضى عهد الراحة».

والموضوع الرئيس الذي تركز عليه الرواية هو الصدام بين الاستعمار الأوروبي والمجتمع الأفريقي التقليدي، بحيث تعرض لحلقة جديدة من حلقات هذا الصدام الذي بدأه أتشيبي في رواية «الأشياء تتداعى». وتعرض هذه الرواية لسقوط أحد الأعمدة الرئيسة التي قام عليها المجتمع التقليدي وهو المؤسسة الدينية التقليدية، الأمر الذي أدى إلى إفساح الطريق أمام المؤسسة الدينية الوافدة لتنازعها في الأمر بل ولتحل محلها بشكل شبه تام.

وتدور رواية «سهم الله» في أرض الإيبو في عشرينيات القرن العشرين، وبطلها هو إيزولو Ezeulu كاهن الإله «أولو» والذي يتحكم في إعلان موسم الحصاد. وهو رجل له منزلته وقدره وسط عشيرته نظراً لمكانته الدينية والروحية. كما ينال أيضاً إعجاب ورتبوتوم مدير المنطقة الإنجليزي بسبب صدقه حيث كان الشاهد الوحيد الذي شهد ضد عشيرته، وذلك حين قدم شهادته في مسألة الأرض المتنازع عليها لصالح أحقية القبيلة الأخرى في الأرض. وهو الأمر الذي لفت نظر ورتبوتوم إليه، وجعله بعد بضع سنوات يستدعيه ليعرض عليه منصب الزعيم المحلي لقبيلته.

وفي مقابل هذا الإعجاب تثير إنجازات الرجل الأبيض إعجاباً في نفس إيزولو، ويستشعر في نفسه أن المستقبل لهم ولعقيدتهم، طالما أنهم يكتسبون أنصاراً كل يوم. ولذلك فإنه يطلب من ابنه أودوشي الالتحاق بمدرسة الكنيسة حتى يتعلم أسرار تفوق هؤلاء الغرباء، ويقنعه بهذا الأمر فيقول له: «أريد أن يختلط أحد أبنائي بهؤلاء الناس ليكون رسولي عندهم ... فإذا لم يكن لديهم ما يستحق فسوف تعود، وإذا كان ثمة شيء فسوف تخبرني»⁽³⁷⁾. إلا أن الأمور لا تسير كما كان يأمل إيزولو، وتخرج عن السيطرة حيث يؤمن الابن بمعتقدات الأوروبيين ويعتق المسيحية، بل ويقوم بقتل الشعبان المقدس لدى عشيرته.

وعندما تقرر الإدارة البريطانية تعيين حاكم على القرية يختار وتربوتوم الكاهن إيزولو ليكون حاكماً على عشيرته؛ إلا أن إيزولو يرفض هذا العرض ويصر على أنه لن يكون سوى كاهناً للإله «أولو». وهنا يثور وتربوتوم ويأمر بحبسه، فيسجن لمدة خمسة أسابيع بتهمة ازدراء السلطة الحكومية.

وبعد أن يطلق سراحه يشعر إيزولو أن العشيرة قد خذلته لأنها لم تساعد أثناء سجنه، فيقرر معاقبتهم ويرفض أن يعلن بدء موسم الحصاد. ويمتنع عن أكل حبات الأيام المتبقية لديه والتي يأكل منها مرة في الشهر مع اكتمال القمر، وذلك بعد أن حالت فترة احتجازه في السجن دون تناولها في أوقاتها المحددة ووفقاً للترتيب والتسلسل المتعارف عليه في أكل اليامات. الأمر الذي يعني تأخير موسم الحصاد لمدة شهرين ويهدد الجماعة بالهلاك والمجاعة. وقد اتخذ إيزولو هذا الإجراء حتى يظهر لهم القدرة المطلقة للآلهة وليؤكد على سلطة الآلهة وضمان سيطرة ما هو روعي على ما هو دينوي حتى ولو كان نتيجة تهديد كيان العشيرة. ولم يلق هذا الأمر قبولاً في نفوس أفراد العشيرة، مما دعى نواكا غريم إيزولو للدود إلى إقناع العشيرة بأن موقف إيزولو لا يرجع لأسباب دينية وإنما هو ناتج عن رغبته في فرض سيطرته على العشيرة ليعلن نفسه ملكاً عليها، مما ألقى بظلال من الشك والريبة في نفوس العشيرة وبدأت تشك في موقفه.

وتستغل الكنيسة هذا الموقف فتدعو الناس إلى وضع ثمار اليوم التي سيقدمونها كتضحية لديها، وتخبرهم بأنها ستعلن لهم بدء موسم الحصاد، وستقوم بحمايتهم من أي مكروه قد يحل بهم من جراء ذلك، وتضطر العشيرة إلى الاستجابة إلى نداء الكنيسة بإيداع حباتها فيها والبدء في الحصاد إنقاذاً لنفسها من الهلاك والمجاعة. وهنا يحدث الشرخ في جدار العلاقة بين العشيرة وكاهنها ومن ثم مع معبودهم، فيسقط هذا التابو وتسقط معه هيئته في قلوبهم.

إلا أن السقوط الأكبر يحدث بعد وفاة أوبيكا الابن الشاب المحب لإيزولو، وعندئذ ينهار إيزولو ويفقد صوابه ويشرف على الجنون. وهنا تنصرف العشيرة عن الكاهن نهائياً فيسقط ويسقط معه إلهه، مما يستتبع دخول جموع من أفراد العشيرة في الديانة الجديدة.

تعالج هذه الرواية مرحلة متقدمة نسبياً في العلاقة بالغرب بعد أن استطاع الاستعمار ترسيخ أقدامه في القارة، حيث شهد وجوده قدراً أكبر من الاستقرار والتغلغل في الحياة الأفريقية على صعيد الحكم، وعلى صعيد الإرساليات التبشيرية، وعلى صعيد اختراق المعتقدات التقليدية وتزايد قدرته على جذب قطاعات أوسع إلى الديانة الوافدة، وغيرها من مفردات ومظاهر الوجود الأجنبي من مدارس ومستشفيات ومحاكم وطرق جديدة وتجارة. فضلاً عن الشروع في تعيين حكام محليين حتى في المناطق التي لم تعرف مثل هذا الحكم المركزي. وتنتهي الرواية بأحداث تمثل المزيد من الاختراق لكيان العشيرة الروحي⁽³⁸⁾.

وتمثل شخصية أزولو، الشخصية المحورية في هذا العمل، فرداً ونموذجاً في ذات الوقت فهو يمثل طليعة مجتمعه ويرمز لإحدى القوى التقليدية ذات الشأن في المجتمع التقليدي. فهو يحتل منزلة رفيعة ومرموقة في مجتمعه بالمعنى الديني والروحي بصفته كاهناً، وهو يمثل عشيرته في أعلى صورها فهو يمثل قوة المعتقد الديني، وانكساره وانصراف العشيرة من حوله يجسد

سقوط أغلى ما يملكه المجتمع التقليدي. وهو ما ينطبق أيضا على أكونكو في «الأشياء تتداعى» والذي يجسد سقوطه سقوط القوة التقليدية المتمثلة في المحارب التقليدي المدافع عن كيان العشيرة. وبسقوط هذين النموذجين يتجسد سقوط أغلى ما يملكه المجتمع التقليدي، روحه وقدرته على الدفاع عن كيانه⁽³⁹⁾. وغني عن القول أن هذا المصير الذي آل إليه إيزولو، كان المدخل الذي تمكنت منه خلاله الديانة الوافدة من اكتساب مواقع مهمة، كما أدى إلى تحول معتنقي الدين الجديد في شكل جموعاً غفيرة بدلا من عناصر مفردة. كما مثل هذا المصير سقوط وانهايار المؤسسة الدينية التقليدية لتفسح الطريق أمام المؤسسة الدينية الوافدة.

• رواية «رجل الشعب».

صدرت رواية «رجل الشعب» "A Man of the People"، وهي الرواية الرابعة لأتشيبي، في عام 1966. وفي هذه الرواية ينتقل أتشيبي ليرصد مرحلة جديدة من مراحل تطور الدولة الأفريقية؛ فإذا كانت رواياته السابقة قامت برصد وضع الدولة الأفريقية أبان وأثناء العهد الاستعماري، فإن هذه الرواية ترصد مرحلة لاحقة من مراحل هذا التطور وهي مرحلة ما بعد الاستقلال، حيث تظهر أفريقيا المستقلة بما لها من رموز ومفردات جديدة ومغايرة.

والموضوع الرئيس الذي تركز عليه الرواية هو وضع الدولة الأفريقية المستقلة حديثاً التي تولى أبنائها زمام الأمور فيها، والإحباط والخذلان الذي شعرت به الشعوب نتيجة الواقع المرير من الفساد والنهب الذي ساد جميع مناحي الحياة، وخاصة بعد الأحلام التي عاشتها هذه الشعوب طوال فترات مقاومة الاستعمار، والآمال التي نسجتها وعلقتها على الحكم الوطني بعد الاستقلال. فهذه الرواية عبارة عن هجاء ونقد شديد للفساد، وتبحث، كما يقول أتشيبي نفسه، في ذلك «الخداع التأمري الذي دُعِيَ بالاستقلال»⁽⁴⁰⁾.

وتجري أحداث الرواية في ستينيات القرن الماضي، في إحدى الدول الأفريقية المتخيلة، بعد سنوات قليلة من الاستقلال. وتدور الرواية حول شخصيتين محوريتين هما تشيف نانجا الوزير الذي يتمتع بشعبية طاغية، والذي سبق له أن عمل مدرساً في شبابه، وأودلي تلميذ الوزير قبل أن يلحق بنجم الوزير ويصبح عضواً في السلطة السياسية في البلاد.

وقد التقى الطرفان مجدداً بعد أن أصبح تشيف نانجا وزيراً، وكان من المقرر له أن يقوم بزيارة إلى المدرسة التي تقع في قرية نائية والتي تصادف أن عمل بها أودلي. وكان للأخير وقتها موقف نقدي من الوزير بسبب استغلاله إحدى الأزمات السياسية في الحكومة والتي تمكن من خلالها من الانتقال من عضو في «الصفوف الخلفية» للحزب إلى أحد الوزراء الجدد الذين شغلوا المواقع الشاغرة بعد استقالة أو إقالة بعض الوزراء. ومن ثم يعارض أودلي تعليمات ناظر المدرسة بأن يصطف المدرسون مثلهم مثل التلاميذ لانتظار الوزير ومصافحته لدى وصوله. ولكن لأنه كان من الصعوبة بمكان حمل المدرسين على التضامن مع موقفه فقد أذعن أودلي لتعليمات ناظر المدرسة. علماً بأن الأخير كان قد عقد آمالاً عريضة على زيارة الوزير خاصة وأنه كان قد بدأ يفقد الأمل في أن يكافأ على جهوده لصالح الحزب الحاكم والتي كان يعتبرها قد تأخرت كثيراً. وأثناء اللقاء بالوزير يفاجأ أودلي بأن الوزير لا يزال يذكره كأحد تلاميذه النابغين. ويؤثر الوزير ببساطته في الجموع التي احتشدت في المدرسة للقاءه، بل إن سلوكه وتواضعه ولياقته تؤثر في أودلي نفسه الذي يتساءل عما إذا كان أخضع حكمه على الرجل لمعايير سياسية صارمة. ويلوم الوزير أودلي لأنه لم يتصل به لدى تخرجه ولم يأت لزيارته حتى يساعده في تقلد وظيفة في المدينة. ويكرر الوزير دعوته له كي يأتي لزيارته في الإجازة حتى يسعى له في الحصول على منحة دراسية في أوروبا.

ويقوم أودلي بزيارة الوزير، وفي بداية زيارته له ينبهر أودلي بحياة الوزير المترفة، وتنشأ بينهما صداقة حيث يصطحبه الوزير معه في تحركاته وعلاقاته رغم أن محاولة الحصول على منحة دراسية لأودلي لا تكفل بالنجاح، لأنهما أثناء زيارتهما للوزير المختص تحدث واقعة يظن فيها الأخير أن هناك من دس له السم في قهوته ويتحول المشهد كله إلى أمر هزلي. لكن نقطة التحول في علاقة أودلي بالوزير تحدث عندما سافرت زوجة الوزير بصحبة أولادها لقضاء عطلة رأس السنة في قريتهما، ومر أودلي على صديقه أزيللي مع الوزير في سيارته واصطحبها معها في احتفال دعا إليه اتحاد الكتاب الأفارقة، ثم عادا معها إلى منزل الوزير حيث أصر الأخير على تخصيص حجرة زوجته لها. وبعد أن انتصف الليل وبينما كان أودلي في طريقه لغرفة صديقه يتنامى إلى سمعه صوت ضحكات، ويفهم منها أن الوزير هو الذي قرر أن يقضي ليلته معها. وبعد مواجهة بين الطرفين تمت صباح اليوم التالي تراشق أودلي فيها بالكلمات مع الوزير استهجن خلالها أن يكون هذا سلوك وزير ثقافة، وعندئذ قرر أودلي الانتقام. ويتنقل أودلي من فيلا الوزير إلى منزل صديق له وهو ماكس. وهناك وجد أودلي نفسه طرفاً في اجتماع تأسيس لميلاد حزب معارض للحكومة. ويقرر أودلي أن ينتقم من تشيف نانجا على مستويين: أحدهما سياسي حيث يقرر أن يدخل الانتخابات منافساً لتشيف نانجا في دائرته. وثانيهما شخصي وهو محاولة أودلي إفشال مشروع زواج جديد لتشيف نانجا ومحاولة الحصول على الفتاة ليتزوجها بدلاً منه. وتحدث المعركة بين أودلي والوزير، ويعرض خلالها الوزير على أودلي الانسحاب من المعركة الانتخابية مقابل إعطائه منحة دراسية إلى أوروبا، ومبلغاً من المال، لكن أودلي يرفض ذلك. فيتعرض لتحرشات وصدّامات ضخمة أثناء احتدام المعركة الانتخابية تنتهي بدخوله المستشفى بعد اعتداء رجال تشيف نانجا عليه، وتفوته فرصة التسجيل للترشيح وينجح تشيف نانج، لكن مفاجأة للجميع

يقع انقلاب عسكري ويضبط تشيف نانجا وهو يحاول الهرب متخفياً في زي صياد. علماً بأن ماكس صديق أودلي يلقي حتفه أبان احتدام المعركة الانتخابية. وتتأثر خطيبته لمقتله فتقتل الوزير المنافس له في الدائرة الانتخابية. ويتقدم أودلي للزواج من الفتاة الشابة التي كان من المقرر أن يتزوجها الوزير نانجا⁽⁴¹⁾.

وتتناول الرواية عدداً من القضايا السياسية والاجتماعية في المجتمع الأفريقي بعد الاستقلال حيث تصور أزمة المجتمع الأفريقي بعد الاستقلال وخيبة أمل الشعوب التي عُقدت على مرحلة الحكم الوطني، وتؤكد على مدى فساد ونفعية النخب الحاكمة، وتوضح أن الأزمة التي يعيشها المجتمع لم تعد بفعل الحضارة الأوروبية الغازية، لكن بفعل أقسام من الذات المحلية المرتبطة بروابط عميقة مع الغرب، والتابعة له ولمصالحه. ويعبر أتشيبي عن هذا الأمر على لسان أودلي حين يحدث نفسه قائلاً: «مسكينة أنت أيتها الأم السوداء انتظرت طويلاً حتى يشب ابنك فيربحك ويعوضك عن عناء سنوات المهانة والازدراء، فإذا بالابن الذي علقت عليه كل هذه الآمال يظهر في النهاية أنه ليس سوى تشيف نانجا». وهو ما يكشف عن عمق خيبة الأمل التي منيت بها الجموع والتي كانت قد عقد آمالاً عريضة على مرحلة ما بعد الاستقلال ومرحلة الحكم الوطني⁽⁴²⁾، إلا أنهم فوجئوا بأنه على الرغم من أن من يحكمهم أفراد من بني وطنهم إلا أنهم لم يختلفوا عن مستعمرهم كثيراً، فهم رجال سود- بيض أضفوا واجهة أفريقية سوداء على السلطة الحكمة دون تغيير يذكر في مضمون تلك السلطة، ومن ثم فقد أصبحوا امتداداً للاستعمار من زاوية كونها قوى معادية لمصالح الجماهير⁽⁴³⁾.

كذلك توضح الرواية مدى تبعية النظم الأفريقية الجديدة للنظم الاستعمارية وذلك من خلال مستويين: أحدهما مستوي أفراد النخبة التي تعيش حالة من التغريب وازدراء كل ما هو وطني ومحلي والانبهار والتعلق بكل ما هو غربي ومحاولة تقليده والتمسح به. فشيف نانجا، على سبيل المثال، والذي يظهر

تواضعاً كبيراً واحتراماً للتقاليد الأفريقية أمام الجماهير، كما يبدي رفضه للهات وراء الخبرة الأجنبية أو وراء هؤلاء الذين تلقوا تعليماً غربياً في الخارج، نجده في الوقت نفسه فخور بأنه سوف يمنح الدكتوراه الفخرية من إحدى الجامعات الأمريكية. كما أنه يدلي في جلساته الخاصة بآراء تكشف عما يحمله في قرارة نفسه من تطلع دائم نحو محاكاة الآخر واحتقار الذات الوطنية. كما أن أودلي، من ناحية أخرى، يرغب في الحصول على منحة دراسية إلى أوروبا لا من أجل التعليم والدراسة ولكن من أجل رؤية أوروبا.

والمستوى الثاني ارتباط النظم الحاكمة بالنظم الغربية ارتباطاً عضوياً من خلال شبكة من المصالح والتي تظهر من خلال عدة جوانب منه تسريب عدد من الوزراء أنباء تغيير الرسوم الجمركية لعدد من الشركات الأجنبية مقابل عمولات ورشاوى مما مكنها من شحن بضائعها قبل موعد رفع التعريفة الجمركية، كما أن تشيف نانجا يحصل على عمولات ومنح وهدايا؛ حيث يحصل على عشرة لوريات مما يجعله يتحمس لتشيد الطرق في دائرته الانتخابية تمهيداً لقيام اللوريات برحلاتها. والدور الأكثر وضوحاً هو مشاركة القوى الأجنبية والمؤسسات الغربية في تمويل العمليات الانتخابية للحزب الحاكم، والذي يتضح منه حجم التواطؤ وعمق المصالح المشتركة التي تربط الدوائر الحاكمة بتلك القوى الأجنبية⁽⁴⁴⁾.

كذلك يدين أتشيبي المعارضة السياسية هي الأخرى ويصمها بالتبعية ففي الاجتماع التأسيسي للحزب المعارض الذي شارك فيه أودلي حضر الاجتماع طرف أجنبي ينتمي لإحدى دول أوروبا الشرقية، ورغم اختلاف هذا الآخر الاشتراكي عن المستعمر السابق الرأسمالي إلا أنه يظل مغاير حضاري وليس ممثلاً للذات الأفريقية، وهو ما يشير إلى تبعية المعارضة السياسية هي الأخرى.

وتعرض الرواية لواقع الدولة الأفريقية المستقلة والأزمة التي تحياها من ثلاثة زوايا وهي الحكم، والشعب، والبديل السياسي، كما لم تغفل الرواية أيضاً دور الصحافة في هذا الواقع الجديد. فالحكم فاسد ومستغل ويقوم، كما يقول أنثيبي، على مبدأ «انهب ودع غيرك يذهب»، وهو نظام سلطوي ليس فقط في علاقته بالشعب، ولكن أيضاً في علاقته بالتيارات المعارضة داخل دائرة الحكم نفسها فهو يرى أن أي صوت معارض «سوف يهدد بتدمير وسقوطك المنزل برمته»، والمعيار الأساسي لدى الحكام هو «الولاء»، وقناعات الفئة الحاكمة تنطوي على احتقار عميق للذات الوطنية «لهذا السبب أقول دائماً إنني أفضل التعامل مع الأوربيين» وذلك رغم الادعاء المزيف بإعلاء الهوية الأفريقية «إننا فخورون بكوننا أفريقيين نتحدث لغة الناس ولسنا من الحاملين لشهادات من الجامعات الغربية ولسنا ممن يقلدون الرجل الأبيض»، ويقابل هذا الاحتقار تقديس مرضي لكل ما هو غربي⁽⁴⁵⁾.

أما الشعب فتصوره الرواية بشكل سلبي فهو يقف على الهامش، وينظر للصراع الدائر كأنه صراعاً لا يعنيه من قريب أو بعيد. فيقول أنثيبي في بعض سطور الرواية: «ما دام البشر يخضعون في أحكامهم لقلوبهم وأمعانهم وليس لعقولهم، فسوف يواصل كل «التشيف نانجيون» في هذا العالم النفاذ في أي شيء وهم سالمون من أي عواقب على ما يقترفونه»⁽⁴⁶⁾.

أما البديل السياسي المطروح فليس وطنياً خالصاً بل تابع للقوى الاشتراكية المناوئة للرأسمالية وهو ما يظهر في الاجتماع التأسيسي للحزب المعارض والذي حضره طرف أجنبي ينتمي لإحدى دول أوروبا الشرقية.

كما يبرز أنثيبي دور الصحافة السلبي في المجتمع الأفريقي فيما بعد الاستقلال، فهي تلعب دوراً تابعاً ومناصرّاً للحكومة والحزب الحاكم وأجهزة الدولة. ففي الأزمة الوزارية التي ثارت حول خطة وزير المالية وأدت لإقالته

وعدد من الوزراء وتولى في أعقابها تشيف نانجا الوزارة، صورت الصحافة الأزمة على غير حقيقتها وأبرزتها على أنها اكتشاف لتورط بعض الوزراء في مؤامرة لصالح بعض القوى الأجنبية. وأخذت تنادي بطردهم خارج الحكم والأكثر من ذلك أنها روجت لحملة عليهم ووصفتهم بالمغتربين «عن لغة الإنسان العادي الحاملين لشهادات من جامعات كمبريدج وهارفارد المقلدون للرجل الأبيض»، في حين صورت أعضاء السلطة الحاكمة بأنهم «فخرون بأنهم أفارقة». ومع تصعيد الحملة الإعلامية خرجت المظاهرات الشعبية تجتاح الشوارع وتحطم عربات ومنازل الوزراء المقالين والذين صاروا يعرفون في البلاد بعصابة الخونة والمخربين⁽⁴⁷⁾. وفي مقطع آخر من الرواية نجد أن الصحافة تمارس نوعاً من الابتزاز للسياسيين والحكام، فأحد الصحفيين يذهب إلى منزل تشيف نانجا ويطلب منه مساعدة مالية، ويعلق الوزير على ذلك بعد انصراف الصحفي بأنه لو لم يستجب إلى مطلبه لعرض نفسه لمخاطر الانتقادات النارية من الصحفي⁽⁴⁸⁾. فالصحافة هنا، وعلى العكس من الدور المنوط بها وبما تمثله من سلطة رابعة في المجتمع، نجدها تتآمر مع السلطة الحاكمة وتشارك في عملية التضليل الإعلامي للشعب.

ويلاحظ أن أتشيبي لم يقدم في هذه الرواية البطل المثالي أو البطل المضاد، بل قدم من خلال عمله شخصيتين محوريتين هما تشيف نانجا وزير الثقافة الطموح الذي ينتمي للنخبة الحاكمة الفاسدة في حكومة الاستقلال الوطني، وأودلي المدرس الشاب الذي يبدو في معظم أجزاء الرواية خاضعاً لحالة مزاجية من النقد والسخرية من الأوضاع المحيطة به. إلا أنه لا يمثل البديل المثالي أو النقيض الأخلاقي للوزير، فالكاتب قدمه على نحو لا يراد به أن يبدو بطلاً مثالياً. فهو لا يجد غضاضة في أن يقبل الوساطة للحصول على بعثة في أوروبا، كما أنه لا يستشعر أي غضاضة في نهاية الرواية من أن يأخذ المبلغ الذي أودع معه من

جانب الحزب المعارض ليدفعه مهراً للفتاة التي كانت مضى خطيبة للوزير نانجا. رغم تبريره هذا الأمر لنفسه بأن الانقلاب العسكري الذي تم قد ألغى كافة الأحزاب السياسية، ومن ثم لم تعد هناك ضرورة لاحتياج المال لأي نشاط حزبي، ولكن هذا السلوك يجرده من المثالية التي كان من المنتظر أن يتحلى بها البطل المضاد لتشف نانجا. وهكذا تبدو لنا شخصية أودلي شخصية مترددة في مواقفها تتردد بين السير في ركاب الطبقة الأعلى والأقوى نفوذاً وبين الطبقات الأدنى في السلم الاجتماعي. فموقفه يشوبه التذبذب أحياناً والتشوش أحياناً أخرى⁽⁴⁹⁾. كما يلاحظ أيضاً أن أبطال العمل لم تعد رموزاً لعشائر أو قبائل أو لمؤسسات دينية أو اجتماعية مؤثرة في حياة المجتمعات الأفريقية، بل تحولت لرموز لشرائح اجتماعية خاصة.

ولا تخلو الرواية من حس نقدي هازل يوظفه أتشيبي في هذه الرواية بشكل أوضح من بقية أعماله الروائية، فتسمية الرواية في حد ذاتها تمثل نوعاً من السخرية والهزل فـ «رجل الشعب» في هذه الرواية هو تشيف نانجا السياسي المخادع الذي يكتسب شعبية طاغية من خلال خداعه للجماهير بمعسول الكلام وادعاء التواضع واحترام التقاليد، بينما هو في حقيقة الأمر سياسي فاسد ووزير ثقافة جاهل. كذلك من الصور الهزلية التي يعرضها أتشيبي نطالع موقف حوار تشيف نانجا مع الطباخ الذي يتقدم للعمل لدى الوزير نانجا، وفيما يعدد الطباخ قدرته على طهي الأنواع الأوربية من الطعام لا يستهوي الأمر تشيف نانجا الذي يفضل المأكولات الأفريقية. إلا أن الطباخ يعتبر أن طهي الأطعمة الأفريقية عمل لا يليق بأن يؤديه رجل، فهو عمل نسوي على خلاف الأمر بالنسبة للمأكولات الغربية التي لا يجد غضاضة في إعدادها ولا يعتبرها أمراً ينتقص من رجولته⁽⁵⁰⁾. كذلك من المصطلحات الساخرة التي يبتكرها أتشيبي هنا عبارة P.I.V في مقابل عبارة V.I.P فمن المعروف أن الأخيرة تعني «الشخصيات المهمة جداً» وهي

اختصار لعبارة very important persons، بينما المصطلح الثاني الذي يسكه أتشيبي هو اختصار لعبارة poor innocent victim أي «الضحية المسكينة البريئة»⁽⁵¹⁾ والتي يقصد بها أفراد الشعب. ومن المواقف الهزلية الطريفة في الرواية أيضاً موقف الوزير تشيف كوكو الذي كان الوزير نانجا في زيارته بصحبة أودلي ليتوسط له للحصول على بعثة دراسية في أوروبا لأودلي. وأثناء جلوسهم سوياً يصبح تشيف كوكو قائلاً بأنه تسمم وأن هناك من دس له السم في القهوة. ويسود التوتر والقلق ويهب تشيف نانجا إلى التليفون لاستدعاء النجدة، بينما يهرول الخدم لاستدعاء الطباخ الذي أعد القهوة للوزير وكاد أن ينصرف. وتظهر المفارقة في أنه فيما نفذ «النسكافيه» المستورد الذي عادة ما يستخدمه الخادم في إعداد قهوة الوزير استعمل الطباخ بناً محلياً دأبت الحكومة على الإعلان عنه، وحث المواطنين على استخدامه هو وعدد آخر من المنتجات المحلية في إطار حملة للترويج للمنتجات الوطنية. ويتحول المشهد بأكمله إلى مشهد هزلي ساخر ولكنه يكشف عن مفارقتين: إحداهما حالة الفرع الذي يعتري هذه النخبة والشك الذي يساورها تجاه أقرب الأشخاص العاملين لديها وعدم إحساسها بالأمان. والثانية هذه السخرية من المنتجات المحلية التي فيما تحرص الحكومة على حث المواطنين على استخدامها يبدو طعمها في فم الوزير أقرب إلى طعم السم. فهي منتجات لم يعتد الوزير على استخدامها في حياته اليومية، حيث دأب على استخدام المنتجات الأجنبية⁽⁵²⁾. ولا يخفى مدى المرارة والأسى التي تقبع خلف سخرية وهزل أتشيبي.

• رواية «كثبان النمل في السافانا»⁽⁵³⁾.

تعد رواية «كثبان النمل في السافانا» "Anthills of the Savannah" آخر أعمال أتشيبي الروائية حيث صدرت عام 1987 بعد انقطاع عن كتابة الرواية

دام حوالي عشرين عاماً، وقد نالت هذه الرواية اهتماماً وتقديراً أدبياً رفيعاً. فقد علق عليها ريتشارد داودين في صحيفة الإندبندنت قائلاً: «يجب على كل حاكم أو في طريقه الخطر لحكم بلد أفريقي أن يقرأ هذا الكتاب، وكذلك علينا جميعاً أن نقرأه، إنه يضيفي إنسانية على عالم كنا نخاف أن لا وجود له». أما تعليق صحيفة الأيرش تايمز على هذه الرواية فقد جاء فيه: «يسيطر العنف على دراما تشمل الحب والصداقة والأمل، ويهدد ذلك كله. تلك هي أفريقيا اليوم يقدمها لنا الكاتب بأسلوب مذهل وبملحمة من السرد التلقائي. إنها رواية ممتعة وقوية وغاضبة...». في حين علقت الفايننشال تايمز عليها بالقول: «بطريقة دمج فيها الأسطورة والخرافة بالأساليب الحديثة، كتب أتشيبي كتاباً حكيماً ومثيراً ومتكاملاً. أنه ترياق قوي ضد معلقي «العالم الخارجي» الساخرين الذين لا يرون مطلقاً أن أفريقيا يمكن أن تأتي بجديد». كما أشاد بها الأديب الصومالي البارز نور الدين فارح فكتب في جريدة ويست أفريكا: «جودة السرد مشحونة بفرن الرواية، والإحساس بالأشياء والأفكار السامية. هذه رواية متميزة للكاتب الأكثر تميزاً في أفريقيا، إن «كثبان النمل» تستحق أن يُحتفى بها»⁽⁵⁴⁾. وقد عملت هذه الرواية على تجديد شهرة أتشيبي وأدخلته قائمة المرشحين لجائزة البوكر في بريطانيا.

والموضوع الأساسي الذي تركز عليه الرواية هو حال الدول الأفريقية المستقلة حديثاً وما تعانيه من مشكلات سياسية واجتماعية ومن أبرزها الديكتاتورية والفساد ودور النخبة وعلاقتها بالمجتمع. وتدور أحداث الرواية في إحدى دول غرب إفريقيا المستقلة حديثاً، أطلق عليها أتشيبي اسم كانجان Kangan، والتي تعيش في ظل حكم عسكري وذلك في فترة الستينيات من القرن العشرين.

وتدور الأحداث من خلال ثلاث شخصيات رئيسة في الرواية هي سام الحاكم العسكري، وهو ديكتاتور ذو خلفية عسكرية تلقى تعليمه العسكري في

بريطانيا، وعاد إلى كانجان ليحكمها بيد من حديد تعاونه وزارة فاسدة ووكالة الاستخبارات العسكرية، دون وجود برلمان يمثل شعب كانجان. والشخصية الرئيسة الثانية هي كريس وزير الإعلام في حكومة سام، والذي تعرف عليه أثناء دراسته ببريطانيا ويبدو أن علاقتهما استمرت حتى تقلد سام السلطة فعينه وزيرا للإعلام ومسئولاً عن الرقابة على الصحف والمطبوعات في الدولة. والشخصية الثالثة هي إيكيم وهو صحفي ثوري وصديق مقرب لكريس درساً سوياً في بريطانيا، وتعرفا هناك على سام. وبعد العودة أسند إليه سام مهمة تحرير الجريدة القومية في كانجان. وثلاثتهم يمثلون نماذج من النخبة، جمعتهم الظروف أثناء دراستهم في بريطانيا قبل أن يعودوا إلى كانجان ليتولى سام مقاليد السلطة فيعين زملاءه الذين تلقوا تعليماً غربياً في المناصب الهامة.

وتبدأ أحداث الرواية بوصف اجتماع للحكومة وبعد انتهاء الاجتماع، تنتقل لخارج القصر لتصف تجمع الجماهير القادمة من مقاطعة أبازون والتي تحاول مقابلة الرئيس لتشكو له من إغلاق الحكومة لخطوط المياه عن مقاطعتهم التي تعاني من الجفاف. ويشكل المتجمعون وفداً لمقابلة الرئيس الذي يرفض لقاءهم.

وقبل مغادرة الوفد للعاصمة يذهب إيكيم الصحفي لمقابلة الوفد، حيث يتضح أنه أحد أبناء مقاطعة أبازون حيث ولد ونشأ بها، ويظهر أهل أبازون حباً واحتراماً كبيراً له ويعدّهم بالمساعدة. وبعد أن يغادر إيكيم الاجتماع مع الوفد يستوقفه أحد ضباط المرور ليحرر له مخالفة، ويكتشف إيكيم بعد ذلك أن عملاء الاستخبارات العسكرية يلاحقونه ليحصلوا على دليل يفيد اجتماعه مع وفد أبازون حتى يتسنى لهم محاكمته بتهمة الخيانة والتآمر لمناصرته وتأييده لمتمردي أبازون. وبعد ذلك يتم فصل إيكيم من الجريدة القومية بناء على أوامر من الرئيس، حيث رأى أن إيكيم قد تخطى حدوده في انتقاده اللاذع لإدارته على

صفحات الجريدة، بالإضافة إلى موقفه من قضية أبازون. وقد اضطر الرئيس إلى اتخاذ ذلك الإجراء بنفسه بعد أن رفض كريس وزير إعلامه المسئول عن الرقابة القيام بذلك. وفي اليوم التالي لفصل إيكيم من الجريدة يقوم بإلقاء خطاباً حاداً في جامعة باسا عاصمة كانجان، وفي اليوم التالي يتم نشر الخطاب في الجريدة بعد تحريره ليوحي بأن إيكيم يحرض على قتل الرئيس. فتوجه له تهمة الخيانة والتآمر، ويتوجه الجنود لمنزله لإلقاء القبض عليه فيطلقوا عليه الرصاص عمداً فيردوه قتيلاً، ويدعوا بعد ذلك أن وفاته حدثت عن طريق الخطأ.

وبعد مقتل إيكيم يدرك كريس أنه لم يعد باستطاعته العمل في منصبه في حكومة سام. ويخشى على نفسه من أن يلقي نفس مصير إيكيم فيحاول الاختباء، وفي تلك الأثناء يُتهم كريس بالخيانة أيضاً وتطارده الشرطة. وبعد الاختباء لأسابيع، يقرر كريس مغادرة المدينة والتوجه إلى أبازون. وأثناء هذه الرحلة يشاهد كريس ما آلت إليه أحوال الناس من فقر وعوز وما وصلت إليه حالة البلاد من دمار وفساد. وعندما يصل لأبازون تصل الأخبار من العاصمة بأن ثمة انقلاب حدث وأطاح بالحاكم العسكري الذي غادر البلاد. فينطلق الناس إلى الشوارع للاحتفال ويخرج كريس لمشاركتهم احتفالهم حيث يتقابل مع أحد رجال الشرطة المخمورين والذي يصيبه بطلق ناري عن طريق الخطأ فيسقط صريعاً.

تطرح الرواية قضية الحكم الاستبدادي الديكتاتوري وذلك من خلال شخصية سام الذي يمارس الحكم المطلق فليس هناك برلمان يمثل الشعب، ووكالة الاستخبارات العسكرية تترصد أي معارض والتهم جاهزة والحكم محدد سلفاً وهذا ما حدث مع إيكيم ومن بعده كريس، والوزارة التي تحكم الدولة مسخرة لتنفيذ رغبات الحاكم وليس لها رأي فرأي الحاكم هو الأول والأخير وليس لفرد فيها حق الاعتراض أو حتى التعقيب. ففي أحد مقاطع الرواية يقرر سام تعيين نفسه رئيساً مدى الحياة وعندما لاحظ امتعاضاً على وجه

كريس خاطبه قائلاً: «إذا اعتقد أحد أن بإمكانه ترك الوزارة بسبب هذا الموضوع فسيرتكب خطأ محزناً... كل من سيخرج من هذا الباب لن يذهب إلى بيته بل إلى الاعتقال مباشرة»⁽⁵⁵⁾.

كما تطرح الرواية بقوة قضية النخبة ودورها في المجتمع، من خلال أبطال الرواية الثلاثة الذين يمثلون نماذج للنخبة الحاكمة والمثقفة في أفريقيا. فسام يمثل الطغمة الحاكمة الممسكة بزمام الأمور التي تعاني من التغريب والمنفصلة عن الشعب بشكل تام، والتي تدعي امتلاك المطلق ولا تقبل بأي انتقاد. بينما يمثل كريس المثقفين العارفين بالصواب والخطأ ولكنهم حريصون في نفس الوقت على وضعهم النخبوي فيغضون الطرف عما يحدث متجاهلين دورهم نحو المجتمع. وهؤلاء هم من شبههم أنشيبى بكثبان النمل التي ترعى في برية السافانا المحترقة.

أما إيكم الكاتب والشاعر، المثقف الثوري فيمثل الدور المفترض للكتاب والمثقفين نحو المجتمع فهو يضحى بوضعه النخبوي بل وبحياته في سبيل الدفاع عن مبادئه وعن مصالح الشعب حيث يرى نفسه واحد منه. فنجدّه يبين دور الكتاب، ويحدد أدوارهم في طرح الأسئلة أكثر من تقديمهم لأجوبة أو توضيح للمشاكل السياسية القائمة. ففي محاضراته التي ألقاها في الجامعة يركز إيكم على رغبة الكاتب في طرح الأسئلة، بينما يريد منه الآخرون تقديم الحلول، ويقول: ليس هناك نخبوية عدوانية أكثر ممن يظن نفسه أنه بإمكانه الإجابة على أسئلة لم تطرح بعد، ثم يطلب من الحاضرين العودة إلى بيوتهم، والتفكير في أمورهم، حيث يريد منهم فحص ومراجعة أسلوب حياتهم. إن ما يطمح إليه إيكم ككاتب هو توسيع رقعة التدبر والتفكير الذاتي، بحيث يكون الشعب هو من يفكر وهو صاحب القرار وليس عناصر نخبوية أخرى تفكر وتنفذ وتتولى القيادة، ويظل الشعب كما هو لتدور الأمور في دائرة مفرغة لا فكاك منها.

وللمرأة حضور قوي في هذه الرواية من خلال الشخصيات النسائية الرئيسة بها، بياتريس صديقة كريس الفتاة المثقفة التي تلقت تعليمًا إنجليزيًا، وإليوا صديقة إيكم الفتاة المحلية البسيطة، وهما شخصيتان متناقضتان ومن خلال هذا التناقض يطرح أتشيبي العديد من الأفكار حول دور المرأة. إلا أن أهم ما ورد في الرواية عن المرأة ودورها جاء في رسالة الحب التي قرأها إيكم على مسامع بياتريس، والذي كتب فيها عن إدراكه أن الخلل الرئيس في بلاده هو عدم إعطاء دور واضح للمرأة، ويعزو فهمه الجديد لدور المرأة لحركة التغير الاجتماعي في بلاده، حيث يبين أن النساء هن المجموعة الأكثر والأقدم تعرضاً للاضطهاد في العالم على مر العصور (56). وما يفعله أتشيبي هنا هو محاولة تعظيم دور المرأة الأفريقية في القضايا الكبرى في فترة ما بعد الاستقلال.

• ملاحظات ختامية حول عالم أتشيبي الروائي.

استطاع أتشيبي من خلال عالمه الروائي أن يرصد واقع المجتمع الأفريقي في فترة من أصعب وأهم الفترات التي عاشتها أفريقيا، وهي الفترة التي سبقت وعاصرت وصول الاستعمار للقارة ورافقته حتى ما بعد رحيله، واستطاع أن يشخص ويوصف أمراض هذا الواقع وعلاته. فأجاد اختيار الموضوعات وأنقن رسم الشخصيات ولم تفته أدق الرتوش والتفصيلات فأبدع لنا عالماً روائياً أفريقياً فريداً.

فقد ركز أتشيبي على موضوعات الهوية الأفريقية، والصدام بين الحضارة الأوروبية والذات الأفريقية، والصراع بين القيم التقليدية للمجتمعات الأفريقية وقيم الاستعمار الوافد، وأثر الاستعمار على المجتمع الأفريقي وعلى النخب الحاكمة والمثقفة، ووضع الدول الأفريقية المستقلة حديثاً وما تعانيه من مشكلات سياسية واجتماعية كالديكتاتورية والفساد ودور النخبة وعلاقتها بالمجتمع وتبعيتها للغرب.

كما نجح أتشيبي في اختيار أبطال أعماله واستطاع توظيفها جيداً لخدمة موضوعاته، حيث مثلت شخصياته في فترة ما قبل وأثناء الاستعمار رموزاً لعشائر أو قبائل أو لمؤسسات دينية أو اجتماعية مؤثرة في حياة المجتمعات الأفريقية، فنطالع شخصية «أوكونكو» الزعيم التقليدي ورجل العشيرة المحارب في «الأشياء تتداعى»، و«إيزولو» الكاهن ورجل الدين في «سهم الرب»، والذين مثل سقوطهما وتداعيهما سقوط البناء الحضاري وأعمدة المجتمع التقليدي في مواجهة الحضارة الغازية. بينما مثل أبطاله قبيل الاستقلال وما بعده شرائح اجتماعية جديدة ظهرت نتيجة للاستعمار والأوضاع الجديدة التي جدّت على المجتمع الأفريقي فظهرت شخصية «أوبي» في «مضى عهد الراحة» ممثلة لشريحة المثقفين الجدد ذوي الجذور الأفريقية والتعليم الأوربي، والذين يضيعون نتيجة الانفصام بين ماضيهم الأفريقي وواقعهم تحت الاستعمار، فهم شريحة تقع ضحية للشد والجذب بين هذا التيار وذاك. أما في فترة ما بعد الاستقلال فتظهر لنا بقوة نماذج ممثلة للنخب الحاكمة والمثقفة بكافة أطيافها، فالوزير الفاسد «تشيف نانجا» في «رجل الشعب» يمثل النخبة الحاكمة الجديدة بما تتميز به من الفساد والتبعية وخداع الجماهير البسيطة، و«سام» الحاكم العسكري في «كثبان النمل في السافانا» يمثل النخبة العسكرية الديكتاتورية الحاكمة، و«كريس» وزير الإعلام في ذات الرواية يمثل النخبة المثقفة المنتفعة الراغبة في الحفاظ على وضعها النخبوي رغم معرفتها بالصواب والخطأ، أما «إيكم» فيمثل شخصية المثقف المناضل الملتزم بأحلام الجماهير المعادي للديكتاتورية والفساد في «كثبان النمل في السافانا» والذي يرى نفسه، رغم انتمائه للنخبة، ضمن صفوف الجماهير وهو يدفع حياته ثمناً لذلك.

وتطرح أعمال أتشيبي قضية علاقة الأدب بالمجتمع ودور الأديب في مجتمعه بقوة. فإذا كان أتشيبي قد انطلق في كتاباته من منطلق أن «الرواية الجيدة

يجب أن تنضوي على رسالة وأن يكون من ورائها هدف» وأن الأدب لا بد أن يكون مكرساً لخدمة الإنسان⁽⁵⁷⁾، فإنه بذلك يكون قد حدد دور الأديب نحو مجتمعه. فالأديب شخص له رسالة نحو مجتمعه مفادها خدمة الإنسان وتوجيه المجتمع. وقد التزم أتشيبي بهذا الرسالة وألزم بها نفسه في جميع أعماله، فوجد رواياته تهدف إلى تعليم وثقيف المجتمع وتبصرته بما يدور حوله، حيث يقوم بدور الأديب المعلم والموجه صاحب الدور التنويري والتعليمي. وهو يقول في هذا الصدد «سوف يكون أمراً مرضياً لي تماماً إذا كانت رواياتي، خاصة تلك التي ألفتها في الماضي، لم تفعل أكثر من أنها علمت قرائي أن ماضيهم - بكل نواقصه - لم يكن ليلاً طويلاً من الهمجية التي جاء الأوربيون الأوائل لينتشلوه منها نيابة عن الرب. أما ما أكتبه فهو فن تطبيقي وليس فناً خالصاً، ولكن لا يهم، فالفن أمر مهم وكذلك هذا النوع من التعليم الذي أقصده، ولا أرى ضرورة من أن يستبعد أحدهما الآخر»⁽⁵⁸⁾. كما يرى أتشيبي أن الكاتب الأفريقي لا يستطيع أن يكون غير معني بالظلم الاجتماعي الذي تعاني منه شعوب القارة، كما أنه من غير الممكن أن يتخذ موقفاً غير مبال. ويضيف أن أي كاتب أفريقي مبدع يحاول تجنب القضايا الاجتماعية والسياسية الكبرى في أفريقيا المعاصرة سوف ينتهي به الأمر ليصبح عديم الصلة بما حوله⁽⁵⁹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن أتشيبي لم يلتزم بهذا الدور في كتاباته فقط، بل تعداه إلى حياته أيضاً. فرفضه لجائزة الجمهورية الاتحادية CFR والتي منحها إياه الرئيس النيجيري أوباسانجو، والذي جاء اعتراضاً على أوضاع نيجيريا السياسية والاجتماعية لم يكن عرضياً أبداً؛ فهو متأصل في اعتقاده الراسخ بأن الكاتب يجب أن يرى نفسه جزءاً من هدف أسمى يتمثل في بناء مجتمع أفضل. وبالنسبة له هناك علاقة عضوية بين الكتابة بوصفها وسيلة تعليمية وتغيير الوضع الاجتماعي الراهن، وقد كتب عام 1975: «لا عذر للكاتب من مهمة إعادة خلق الأجيال وإعادة الصياغة الاجتماعية»⁽⁶⁰⁾.

وقد أسس هذا العالم الروائي لأتشيبي ما عرف باسم أدب ما بعد الكولونيالية أو أدب ما بعد الاستعمار، حيث شكلت أعمال أتشيبي، إلى جانب أعمال عدد آخر من روائي العالم الثالث، حجر الزاوية الذي ارتكزت عليه حركة أو نظرية أدب ما بعد الاستعمار تلك النظرية التي تبلورت تماماً في عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين بعد أن نهضت على أكتاف مجموعة من المثقفين المنفيين، أو أولئك الذين هاجروا، كأتشيبي والطيب صالح من الجنوب إلى الشمال، من البلدان المستعمرة في آسيا وأفريقيا، إلى المركز الاستعماري، سواء القديم في أوروبا، أو الجديد في الولايات المتحدة. وهكذا نشأت نظرية ما بعد الاستعمار على يد مهاجرين من المستعمرين، ولكن في استضافة المستعمرين، وبموافقتهم، وبمساعداة حثيثة منهم. واهتمت الأعمال المندرجة تحت هذه النظرية، بالآثار التي تركتها حركة الاستعمار على المستعمر والمستعمر⁽⁶¹⁾.

والطرح الذي تطرحه هذه الأعمال هو الطرق بقوة على أبواب الحرية المأمولة لشعوب القارة في مرحلة الاستعمار، ومحاولة معالجة مشكلات المجتمع المحلي فيما بعد الاستقلال بكل ما فيه من تخلف وظلم وفساد، بحيث تعبر عن وجهات نظر السكان الأصليين وقيمهم ودياناتهم وحضاراتهم وتفاصيل حياتهم وهمومهم. ومما لاشك فيه أن أعمال أتشيبي الروائية تمثل هذا الطرح بشكل مثالي ابتداءً من «الأشياء تنداعى»، ومروراً بـ «مضى عهد الراحة»، و«سهم الله»، و«رجل الشعب» وحتى «كثبان النمل في السافانا».

ورغم عمق الموضوعات التي عرض لها أتشيبي في أعماله الروائية، إلا أن أهم ما ميز أسلوبه في رواياته هو البساطة وعدم المبالغة في استخدام الأساليب والتقنيات الروائية، وقد نجح بشكل كبير من خلال أسلوبه هذا في أن يضيء مظاهر الحياة المتبدلة في إفريقيا، وصراع ثقافتين مع بعضهما البعض، ثقافة تحكمها الأساطير وعادات القبيلة، وأخرى استعمارية تريد نسف الثقافة الأخرى.

وبالرغم من حساسية مواضيع كهذه، إلا أن أتشيبي وبتفاق نقاد أعماله، حاول أن يكون متوازناً ورصيناً، بحيث أنه لم يقدم الماضي كزمن فاضل وإيجابي، كما لم يتناول الحاضر في رواياته تلك، كشيء قبيح وغير مرض⁽⁶²⁾.

كذلك تجدر الإشارة إلى أنه رغم تبني أتشيبي للشكل الروائي الغربي إلا أنه لم يسع، كما سعى غيره من الروائيين الأفارقة، لتقليد الأدب الإنجليزي لكي يجدوا مكاناً بين كتاب الرواية المعاصرة باللغة الإنجليزية؛ بل إنه عمل على تجنب الوقوع في مستنقع محاكاة الاتجاهات التي ينزع لها الأدب الإنجليزي. وبرفضه التيار الأوروبي القائل بأنّ الأدب ينبغي أن يكون مكرساً للأدب في ذاته يكون أتشيبي قد تبني الفكرة التي تمثل جوهر الأدب الإفريقي والتي ينبغي للأدب بموجبها أن يكون مكرساً لخدمة الإنسان، فيقول في هذا السياق: «إنّ أسلافنا قصّوا علينا الأساطير والحكايات من أجل تعزيز المبادئ الإنسانية». ومن هذا المنطلق نرى أن أتشيبي يعتقد على نحو راسخ بأن «الرواية الجيدة يجب أن تنضوي على رسالة وأن يكون من ورائها هدف» بحسب تعبيره⁽⁶³⁾. وقد عمل أتشيبي على ذلك من خلال محاولة تطويع شكل الرواية الأوروبية وجعله ملائماً للأدب الإفريقي، واستعان بترائه الشفاهي من أمثال وأساطير وحكايات شعبية ليضفي على عالمه الروائي مسحة أفريقية أصيلة، مدفوعاً في ذلك بتعاطفه الشديد لسياقه الثقافي الإفريقي.

واللافت للنظر أن أتشيبي لم يتردد في استخدام لغة أجنبية، اللغة الإنجليزية، في كتابة أعماله رغم التناقض الظاهري الذي يبدو فيما بين مضمون أعماله الروائية المعادية للاستعمار واستخدام لغة المستعمر. وخاصة في ظل الآراء التي ترى أن هذا الأمر له آثار سلبية على الثقافة والهوية الوطنية، وأن الأولى استخدام اللغات الوطنية في كتابة الأدب الإفريقي. إلا أن أتشيبي اختار أن يتعامل مع الواقع الحالي السائد كما هو وليس كما ينبغي أن يكون، ولذا فإنه لم

ير غضاضة في الكتابة باللغات الأجنبية حيث رأى فيها أداة توحيد تتيح تجاوز واقع التعددية اللغوية الشديدة في القارة، كما رأى أنه في الإمكان تطويع اللغات الأجنبية لتعبر عن التجربة الأفريقية وعن الخصوصية الحضارية الأفريقية⁽⁶⁴⁾. وقد تمثلت براعة أتشيبي فعلياً في تحقيق هذا الأمر من خلال قدرته على تفعيل اللغة الإنجليزية وخلق لغة خاصة به قادرة على حمل ثقل تجربته الأفريقية. وختاماً يمكن القول أن عالم أتشيبي الروائي عالم ثري رغم قلة عدد رواياته، شديد العمق رغم مباشرته ووضوحه، عالم متصل متسلسل له رسالة وهدف. عالم ملتصق بأفريقيا مناصر لها دون شوفينية مفرطة، عالم معاد للاستعمار والهيمنة والاستقلال الزائف والديكتاتورية والفساد. عالم أعاد رسم صورة أفريقيا في مخيلة الآخر بعيداً عن الأوهام والخيالات المغلوطة. عالم تنبض شخصياته بالحياة وأحداثها بالصدق، عالم ينطلق ليصور بدقة منظومة من القيم والنظم الحضارية السامية، رغم بساطتها، التي تعبر عن جزء كبير من أفريقيا. عالم أوضح دور الأديب الملتزم نحو مجتمعه، وأسهم في نشأة اتجاه أدبي جديد على مستوى العالم عرف باسم أدب ما بعد الاستعمار أو أدب ما بعد الكولونيالية.

• هوامش ومراجع الدراسة

1 - نائر ديب، «روائي السافانا تشينوا أتشيبي: إفريقيا تكتب ردّها». جريدة الأسبوع الأدبي «النسخة الإلكترونية»، العدد 927، 9 / 10 / 2004.

<http://www.awu-dam.org/alesbough%20802927//isb927029-.htm>

2 - رشا المالح، «روايات خالدة - حياة إنسان عصامي في أفريقيا العريقة، الأشياء تتداعى»، جريدة البيان «النسخة الإلكترونية»، العدد 290، 24 نوفمبر 2003.

<http://www.albayan.co.ae/albayan/book/2003/issue290/final/1.htm>

3 - نائر ديب، مرجع سابق.

4 - تشينوا أتشيبي، رواية «كثبان النمل في السافانا»، ترجمة فرج الترهوني. (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة (إبداعات عالمية؛ عدد 339)، ديسمبر 2002، ص 351.

5 - Liukkonen, Petri & Pesonen, Ari: Books and Writers: Chinua Achebe; Dec. 6., 2001.

URL: <http://www.kirjasto.sci.fi/achebe.htm>

6 -Melissa Culross: Chinua Achebe's Biography and Style.

<http://www.scholars.nus.edu.sg/landow/post/achebe/achebebio.html>

7 -Author profile, Chinua Achebe, World literature today .January- April 2005, p. 60.

8 - صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية بعنوان «الأشياء تتداعى» للمترجم د. أنجيل بطرس سمعان عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة - 1971. كما صدرت ترجمة عربية أخرى لها تحمل نفس العنوان للمترجم أحمد خليفة، عن سلسلة ذاكرة الشعوب عام 1984.

9 - تشينوا أتشيبي، «كثبان النمل في السافانا»، مرجع سابق ص 351.

10 - صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية بعنوان «مضى عهد الراحة» للمترجم نزار مروة، عن سلسلة ذاكرة الشعوب.

11 - صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية بعنوان «سهم الله» للمترجم سمير عبد ربه، عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة - 1992.

12 - علي شلش، «الأدب الإفريقي»، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة) (1993) عدد (171)، ص ص 182 - 183.

13 - أحمد زين، «أتشيبي يحلم بحضارة تصنعها كل شعوب العالم»، صحيفة «الوطن» النسخة الإلكترونية، العدد (624) السنة الثانية - 15 يونيو 2002 م.

<http://www.alwatan.com.sa/daily/200215-06-/culture/culture03.htm>

14 - تشينوا أتشيبي، «كثبان النمل في السافانا»، مرجع سابق ص 351.

15 - جريدة القدس العربي، العدد (7391)، 25 مارس 2013.

16 - ثائر ديب، مرجع سابق.

17 - علي شلش، مرجع سابق، ص 183.

18 - ثائر ديب، مرجع سابق.

19 - Author profile, Ibid, p. 60.

20 - شبكة الأنباء المعلوماتية، www.annaba.org.

21 - الجزيرة . نت (الأخبار). الثلاثاء 4 / 6 / 2002 «جائزة ألمانية رفيعة لكاتب

نيجيري». <http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=33293>.

22 - Author profile, Ibid, p. 60.

23 - إلياس محمد سعيد، «الروائي النيجيري أتشيبي يرفض أرفع جائزة أدبية في

بلاده»، جريدة الدستور الأردنية «النسخة الإلكترونية»، العدد 14949، 15

كانون الثاني 2006. <http://addustour.com/news/Viewoldnews.asp?Nid=91775>.

24 - ثائر ديب، مرجع سابق.

25 - إلياس محمد سعيد، مرجع سابق.

26 - المرجع السابق.

27 - Landow, George (ed.): Postcolonial Literature in Africa: Chinua Achebe; Dec. 6., 2001,

URL: <http://www.scholars.nus.edu.sg/landow/post/achebe/achebeov.html>

28 - رشا المالح، مرجع سابق.

29 - Liukkonen, Petri & Pesonen, Ari: Books and Writers: Chinua Achebe; Ibid.

30 - إيناس طه، "الذات والآخر في الرواية الأفريقية"، القاهرة: المجلس الأعلى

للثقافة، 2005. ص ص 235، 237.

31 - O.R. Dathorne, «African Literature in Twenth Century», London: Heinemann - 1976, p.68.

- 32 - محمد عبد الله الهادي، "شينوا أتشيبي ... عندما تتداعى الأشياء"، موقع القصة العربية.
- 33 - أحمد زين، مرجع سابق.
- 34 - صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية بعنوان «مضى عهد الراحة» للمترجم نزار مروة، عن سلسلة ذاكرة الشعوب.
- 35 - علي شلش، مرجع سابق ص ص 184-185.
- 36 - O.R. Dathorne, «African Literature in Twenth Century», Ibid, p.70 .
- 37 - إيناس طه، مرجع سابق، ص 219.
- 38 - المرجع السابق، ص 208.
- 39 - المرجع السابق، ص 216.
- 40 - ثائر ديب، مرجع سابق.
- 41 - O.R. Dathorne, «African Literature in Twenth Century», Ibid, p.74 .
- 42 - إيناس طه، مرجع سابق، ص ص 252-253 .
- 43 - المرجع السابق، ص 245.
- 44 - المرجع السابق، ص 244.
- 45 - المرجع السابق، ص ص 259-260.
- 46 - المرجع السابق، ص 262.
- 47 - المرجع السابق، ص 247.
- 48 - المرجع السابق، ص ص 255-256.
- 49 - المرجع السابق، ص 257.
- 50 - المرجع السابق، ص ص 256-257.
- 51 - المرجع السابق، ص 261.
- 52 - المرجع السابق، ص 256.
- 53 - صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية بعنوان «كثبان النمل في السافانا» للمترجم فرج الترهوني، عن سلسلة (إبداعات عالمية؛ عدد 339) التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 2002.
- 54 - تشينوا أتشيبي، «كثبان النمل في السافانا»، مرجع سابق ص 14.

- 55 - المرجع السابق ص 189 .
- 56 - المرجع السابق ص 156-158 .
- 57 - إلياس محمد سعيد، مرجع سابق.
- 58 - O.R. Dathorne, «African Literature in Twenth Century», Ibid, p.67 .
- 59 - إيناس طه، مرجع سابق، ص 157 .
- 60 - إلياس محمد سعيد، مرجع سابق.
- 61 - خيرى دومة، «عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية «ما بعد الاستعمار»»، مؤسسة ابن رشد.
- <http://www.ibn-rushd.org/forum/Adwa-al-Raheel.htm>
- 62 - أحمد زين، مرجع سابق.
- 63 - إلياس محمد سعيد، مرجع سابق.
- 64 - إيناس طه، مرجع سابق، ص 392 .